المحاضرة: ابستمولوجية العلوم الانسانية

الإبستمولوجيا العلمية المعاصرة والخروج من مشكلة العلوم الإنسانية

(الخلاصة أن الإبستمولوجيا العلمية المعاصرة " التي هي لا حتمية تعني انقلابا جذريا أن هذا التحول الجذري « على الإبستمولوجيا الحديثة الكلاسيكية " التي كانت حتمية، وقد أدى إلى تقارب كبير في المنهج بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وإذا ما كانهذا التقارب قد بدأ أيضا بتحرك العاملين في مجال العلوم الرياضية، فإن الصياغة الجديدة لعلم الطبيعة، والتي تتبلور الآن أمام أعيننا قد أظهرت أن النظم المعقدة التي تدرسها العلوم الإنسانية، ليست أكثر تعقيدا من النظم الطبيعية، لقد كانت المحاولات الأولى لإحداث التقارب بين مجالي المعرفة أسيرة العلم الطبيعي التقليدي بموضوعيته. ومن ثم كان تقوقعها عبر الفجوة المذكورة آنفا، وكما أوضحنا سالفا، وبعد » وحتميته النسبية والكمومية الجديدة واللاتعين والميكانيكا الموجية ... اتضح أن الظواهر الطبيعية ليست مطردة ولا متجانسة كما كان يظن، وبعد الشوط الذي أحرزته العلوم الإنسانية "لا سيما في الدراسة الوصفية " اتضح أن ظواهر العلوم الإنسانية ليست متغايرة كما كان يظن، أي أن الطبيعة النوعية المعقدة لموضوع الدراسة لم تعد تحول بين العلوم الإنسانية وبين الاستفادة من إمكانات تقدمية كالمتاحة منطقيا أمام العلوم الطبيعية،

ولا العلاقة بين الباحث وموضوع البحث في العلوم الطبيعية بأصفى وأنقى وأبسط منها في العلوم الإنسانية. هكذا تستوعب الإبستمولوجيا العلمية المعاصرة " لمن شاء واستطاع استيعابها " عالم مشكلة العلوم الإنسانية، وتفتح الطريق للخروج منها، وتفتح الطريق لتحقيق درجة التقدم المنشودة فيها في المرحلة التفسيرية على ضوء الخاصية المنطقية المميزة للعلوم الطبيعية.

سوف نعرج الآن بالخاصية المنطقية على تفاعل العاملين معا، والذي ينجم عنه افتقاد المرحلة التفسيرية لتقنين منطقي دقيق، المردود إلى أن الباحث مثقل بالأيديولوجيات القومية وأحكام الحس المشترك، ما يجعل أنساق النظريات في العلوم الإنسانية مفتوحة الطرفين؛ ولكي تتسع " بل لكي تتأتى إمكانات حل مشكلة العلوم الإنسانية " لا بد من الحيلولة دون تسرب أو اقتحام ما هو لاعلمي إلى داخل نسق العلم، وإذا كانت المؤثرات الخارجية والأيديولوجية قد أدت إلى تنازع العلماء، فحالت دون تكامل التفسيرات، ودون التآزر المتوازن بين التنظير والتجريب، فإن المنطق كعامل موضوعي مشترك، كفيل بالجمع بين العلماء وتحقيق التآزر المنشود).

عن كتاب: يمنى طريف الخولي. مشكلة العلوم الانسانية. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. 2014 . ص122-123.

في هذا النص نتعرض لإحدى قضايا الفلسفة والابستمولوجيا تتعلق بمشكلة العلوم الإنسانية باعتبارها آخر العلوم انفصالا عن الفلسفة. وهذا ما يجعلها أكثر عرضة للبحث والمناقشة والتحليل من زاوية

ابستمولوجية. ومن أكثر المشاكل الكلاسيكية والمعاصرة التي تعترضنا في هذه العلوم هو مدى تخطيها لمشكل المنهجية العلمية من خلال الموضوع والأدوات المستعملة في الدراسة.

لقد ظل موضوع الانسان حبيس النظر العقلي والتأمل المتافيزيقي أي مقتصرا على الدراسات الفلسفية. الا أن هذا التفسير الكلاسيكي لمفهوم الإنسان لم يبق على حاله نظرا لما عرفته العلوم الطبيعية من تطور في جميع المجالات، وخاصة عندما ارتبطت همة الانسان بالسيطرة على الطبيعة الشيء الذي فرض ضرورة التفكير في إمكانية تأسيس ما نسميه بالعلوم الإنسانية، ودراسة الظواهر الاجتماعية بطرق عقلانية تتخذ من المنهج العلمي نموذجا لها، بهدف تحقيق أكبر قدر من الموضوعية العلمية.

ومع استقلال العلوم الانسانية عن الفلسفة الواحدة تلو الآخر انطلاقا من القرن التاسع عشر بدأت اشكالياتها تطفو الى الواقع مثلا حول موضوعية العلوم الانسانية، ومدى دقة نتائجها. كما توجهت الاسئلة لكل علم على حدى علم النفس وعلم الاجتماع وفروعهما. ونتيجة لهذه التساؤلات برز الى الواقع اتجاهين أحدهما يقر بعدم قابلية الظاهرة الانسانية لأنها بالنسبة اليهم غير قابلة للدراسة إطلاقا. وإذا كانت الظاهرة الفيزيائية نعتمد في دراستها على التفسير والتنبؤ فإن الفعل الإنساني عكس ذلك، لأنه يخضع للتأويل والفهم الذي يساعدننا على فهم مقاصد ودلالات وغايات الفعل الإنساني التي تنزع اليه الذات، هذه الأخيرة التي تحتل مكانة كبرى عند بعض التيارات الفلسفية من خلال التجربة المعيشية التي عاشتها هذه الذات. وتذرع هؤلاء بعدة حجج منها.

- **طبيعة الظاهرة الانسانية**
- ظاهرة معنوية ترتبط بالنفس والروح والعلاقات الاجتماعية التي يصعب على أي إنسان ملاحظتها أو التجريب عليها "الملاحظة والتجريب من أسس المنهج التجريبي".
- التغير المستمر : مما يصعب علينا وضع القوانين والتنبؤ بالنتائج مسبقا.
- لا تخضع للتكميم لانها كيفية الطبيعة
- **طبيعة المنهج**
- الاستقراء غير ممكن التطبيق لان الجزء لا يمثل الكل في الظاهرة الانسانية باعتبار نكون أمام فرديات أو جماعات وليس الكل.
- التعميم متعذر لعدم امكانية استعمال مبدا الحتمية على الظاهرة الانسانية

على الرغم من هذه المشاكل الا أن التيار الثاني يقر بعلمية العلوم الانسانية، ويمثله الاتجاه الوضعي أو الطبيعي بدعامة من فرنسيس بيكون واوجست كونت واميل دوركهايم التي جاء بمفهوم تشييئ الظاهرة الانسانية أي اعتبارها ظاهرة فيزيائية يمكن صياغة القوانين العلمية عند دراستها

وبالتالي التحكم فيها. والدليل على ذلك النتائج التي توصلت اليها هذه العلوم في ميدان علم النفس (دراسة حالات نفسية مرضية ومعالجتها) وتشهد على ذلك أعمال بافلوف، وواطسون وغيرها. وفي علم الاجتماع (دراسة حالات اجتماعية مرضية ومعالجتها) وتشهد على ذلك أعمال دركهايم في محاربة الظواهر الاجتماعية السيئة كالجريمة. وفي التاريخ لدينا مثال على ذلك ابن خلدون الذي اجتهد في وضع منهج علمي للتاريخ قال بان خلدون: ان التاريخ فن تتداوله "الأمم والأجيال، واشد اليه الركائب والرحال...وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق"

تعقيب: هذا النقاش الدائر بين مسألة الفهم والتفسير في الظاهرة الانسانية سيجعل الدارسين يطرحون السؤال حول النموذج العلمي بالنسبة للعلوم الانسانية، ومن هنا سيبرز السؤال حول مدى إمكانية تطبيق المنهج التجريبي لضمان أكبر قدر من الموضوعية والدقة في العلوم الانسانية. لا شك أن العلوم الإنسانية في سعيها المتواصل أن تتحرر من قيود الإرث الفلسفي التأملي حيث ظل اعتبار الظاهرة الانسانية، ظاهرة مركبة أو معقدة، لأنها ظواهر واعية إرادية لا تتكرر ولا تخضع للإطراد، مما اظهر إجماعا بين الباحثين في مجال العلوم الانسانية حول الاقلال من قيمتها العلمية، لتأثرها باللاوعي المبني على الحس المشترك.

الخاتمة: إن إمكانية تطبيق النموذج العلمي في العلوم الانسانية سيفرض ضرورة التفكير في طبيعة هذه العلوم ومدى صلاحية المنهج العلمي فيها. من الفلاسفة من انكر النموذج العلمي لهذه الدراسات ومنهم من أقره الى درجة الإيمان بقدرتنا على السيطرة عليها والتحكم فيها. ان الواقع أي تاريخ العلم يؤكد على مدى تطور العلوم الانسانية في ميدان التجريب والتطبيق على الواقع بعد الدراسات التي تتبنى مناهج متعددة كالمنهج التاريخي والتجريبي والإحصائي والمقارن، كما فعل ابن خلدون سابقا في إرسائه قواعد علمية حتى يصبح التاريخ علما. ثم تلاه فرنسيس بيكون واجست كونت ود وركهايم.

المصادر:

1- ابن خلدون. المقدمة. ص35

2- يمنى طريف الخولي. مشكلة العلوم الانسانية. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. 2014 . ص122-123.